الفصل السابع

المنهج

[. . بل يُصلحهم العدل والحق
فابْسُط ذلك فيهم . .] ! !

كَتب إليه واليه على خُراسان يستأذنه فى أن يرخص له باستخدام بعض القوة والعنف مع أهلها ، قائلاً فى رسالته للخليفة : [إنهم لايصلحهم إلا السيف والسوط] . .

فكان رده التَّقىُّ الحازم :

« كذَبتَ . .

« بل يُصلحهم العدل والحق ، فابْسُطْ ذلك فيهم ، واعلم أن الله لا يُصلِح عمل المفسدين » . . ! ! !

° ° °

العدل ، والحق . . ! !

بهما وعليهما سيقوم منهج أمير المؤمنين ، وعلى طريقهما اللاحِب المستقيم ، ستمضى خُطاه . . آخذاً معه على ذات الطريق جميع الناس — أمراءهم ، وعامَّتهم . . أغنياءهم ، وفقراءهم . . أقوياءهم ، وضعفاءهم . .

والخليفة ، الذى نراه دائم البكاء ، بل النحيب . كلما ذكَر الله واليوم الآخر . . والذى ينتفض تحت وقع تُقاه انتفاضة العصفور ، حتى لنحسبُه لايَصلح لغير الصومعة يتحنَّثُ فيها ويتعبد . . ! !

هذا الخليفة ، سيبهرنا الآن ونحن نطالع منهجه وأسلوبه فى الحكم حيث تُطِلّ علينا من وراء دموعه المُثالة روح عالية تناضل فى جهاد مستبسل لبلوغ أسمى آفاق العدالة والحق . . وحيث تُطِل علينا كذلك بصيرة نافذة لايُفلت من ضيائها شيء وإرادة حازمة لا يَهُولُها صعب ، ولا يُخْفِلُها خطَر . . . !

وفجأة سنرى العينين السابحتين فى دموعهما دوماً ، تُحَدِّقان كعينى الصقر . . وتُرسِلان بريقاً أخّاذاً يُقنع كل من يتلقاه أنه أمام عينين ثاقبتين ليس إلى خداعهما سبيل . . ! !

* * *

إن المصاعب المتطاولة ، والأخطار المحدقة ، والمؤمرات المتساوقة ، لن تزيد الإرادة الرافعة لواء العدل والحق إلا تقدماً ومضاء . .

فَلْتُغَنِّ العواقب لنفسها . . أما هو فلن يبالى بما كان ولا بما سيكون منها . . بل سيضع يمينه فى يمين الحق . ويمضى معه إلى حيث يُد مدِمان معاً على مظالم وظلمات الأعوام الستين التى سبقته فى الحكم الأموى . . وإلى حيث يجعلان ظُلُماتِها نوراً . . وهَجيرها فردوساً . . وترفَها قناعة . . وانحلالها ورَعاً . . واستعلاءها تواضعاً . . وقَهرها رحمة . . ورُعْبَها أمناً . . ! !

وبين يدى عَزمِه الرّبانى القدير ، راحت كلماته تقرع أسماع الغطرسة ، والتحدى :

« والله ، لو لم ينهض الحق ويُدْحَضِ الباطل إلا بتقطيع أوصالى وأعضائى ، لأمضَيْتُ ذلك وأنا سعيد » ! ! !

« ووالله ، لو لَبِثْتُ فيكم خمسين عاماً ، ما أقمتُ إلا ما أريد من العدل » . . . ! ! !

فلنتابع منهجه لنرى . .

ولكن علينا ألاّ ندع التفاصيل الكثيرة تَشغلنا ببهرها عن الأسس والقواعد .

وعلينا أن نقتصد فى ذكر الوقائع والمشاهد التى تحكى خصائص المنهج وسماتِه ؛ حتى يُفىء علينا هذا التركيز فى الرؤية تركيزاً مُماثلا فى نشوة العقل وغبطة الروح . .

أى أننا سنكتفى من المنهج بنقاط ارتكازه ومَحاوِره التى تدور حولها بقية التطبيقات والتفاصيل . .

وتتلخص هذه المحاور فى :

* نظرته إلى دور الدولة ووظيفتها . .
* نظرته إلى دور الشورى ووظيفتها . .
* نظرته إلى دور المال ووظيفته . .
* موقفه من وحدة الأمة وسلامتها . .
* أسلوبه فى العمل . .

* * *

« فأولاً » : الدولة قدوة . .

إن الحكام الذين يفرضون سلطان القانون بسلطان الدولة لا يأتون

أمراً مذكوراً . . فتلك سُنة مألوفة معتادة . أن تحمى القوة القانون . .

أما الحكام الذين يَحمون القانون وينفذونه بالقدوة ، فأولئك الذين يجاوزون المألوف المعتاد إلى الخوارق والمعجزات . .

ولقد كان « ابن عبد العزيز » واحداً من هؤلاء .

لقد كانت الدولة قبل عهده تحيا خارج وظيفتها وخارج حقيقتها ؛ إذ تركت مواقع عملها واستسلمت للغواية والهوى . .

والدولة عنده تتمثل فى كل الأجهزة العاملة ، لكن يأتى فى المقدمة دائما :

(ا) الخليفة بوصفه رئيس الدولة . .

(ب) الولاة بوصفهم حكام الأقاليم . .

(ج) القضاة . .

(د) أمناء بيوت المال . .

والخليفة - أىُّ خليفة - وإن وضعته وظيفته ومسئولياته على رأس الدولة ، فإنه يظل عاجزا عن أداء دوره مالم يقف معه فى مستواه أو قريباً من مستواه وُلاته وقضاتُه وأمناؤه على الأموال العامة .

هاهو ذا « عمر » يقول :

« إن للسلطان أركاناً لا يثبُت إلا بها . .

« فالوالى ، ركن . .

« والقاضى ، ركن . .

« وصاحب بيت المال ، ركن . .

« والركن الرابع ، أنا » . . ! !

وإذن ، فلكى تكون الدولة قدوة فى حمل دين الله وحقوق الناس ،

لابد أن تتشكل هذه القدوة من سلوك هؤلاء الأربعة مجتمعين . .

الخليفة ، وُلاتُه ، وقُضاتُه ، وخزَنتهُ . .

ولكى تكون الدولة قدوة ، لا بد أن تكون بمسئوليها جميعاً ، وعلى رأسهم أمير المؤمنين . طليعة العمل ورائده . .

وهكذا راح « عمر » يضع الدولة كلها وهو على رأسها فى مكان القدوة ، حاملةً وحاملاً معها كل ماتلقيه القدوة من مسئوليات ، وباذلاً كل ماتتطلبه من تضحيات . .

وقبل أن يأمر ولاته ، وقضاته ، وخزَنته . بدأ بنفسه .

* * *

لقد تلَوْنا من قبل ، كلمته العظيمة :

« لست إلا كأحدكم غير أنى أثقلكم حِملا » ! !

وهنا ، نرى طريقته فى وضع هذا المبدأ موضع التنفيذ الحاسم ، الحازم ، الفريد . .

لقد كان دخله السنوى حتى اليوم الذى ولى فيه الخلافة أربعين ألف دينار . . هى حصيلته من مُخصّصاته كأمير أمويّ . . ومن الأرض التى كان يملكها . . ومن نصيبه الوفير من ميراث أبيه عبدالعزيز بن مروان . .

والآن ، تتفتح بصيرته ، على الحقيقة العميقة ، فيرى أن هذا الثراء الفاحش الذى يمتلكه أمراء بنى مروان – وهو معهم – لم يبلغوه بعرق الجبين . . وما هذه الثروة المتمركزة فى أيدى حفَنات من الأمراء والسادة ، إلا حقوق الملايين وأقواتها سُلبتْ منها بغير حق ، وبغير سلطان . . !

ومن فَوره ، اتخذ قراره الحاسم بإلغاء كافة مخصصات الأمراء ، ومُخصصات حَرسِهم وخدمهم ، وقراره بنزع الإقطاعيات الزراعية منهم جميعاً ، وردها إلى بيت المال . .

وبدأ بنفسه ، فتخلَّى عن جميع أملاكه وأمواله ! !حتى أرض « فَدَك » فى « خَيْبَر » وكانت خير ممتلكاتِه وأثمنَها . ولم يكن أحد أقطَعه إياها ، بل ورثها عن أبيه . .

لكنه سأل نفسه : ومن أين جاء بها أبوه . . ؟ !

لقد أفاءها الله على رسوله عليه الصلاة والسلام يوم « خيبر » ، فخصَّصها لأبناء السبيل . وظلت كذلك حتى ملك الأمرَ معاوية . فوهبها لمروان . . ومن مروان . وصلت إلى ابنه « عبدالعزيز » والد « عمر » . .

نقول : حتى هذه الأرض ، تخلَّى عنها وكتب لواليه على المدينة يأمره أن يضمها لملكية الدولة ، وأن يصرف رَيْعها ونتاجها ، حيث كان يُصرف على عهد الرسول وخلفائه . .

ليس ذلك فحسب . . بل لقد تنازل عن كل درهم فى راتبه المخصص له كأمير للمؤمنين . . ! !

لقد اكتفى من دنياه كلها ، ولدنياه كلها ، بقطعة أرض صغيرة كان قد اشتراها بِحُرِّ ماله ، ولم تكن تُغِلّ أكثر من مائتى دينار فى العام ، راح يعيش بها هو وأسرته الكبيرة .

مائتـــا دينار فى العام ، لرجل كان دخله منذ أيام لاغير – أربعين ألف دينار . . ! !

مائتا دينار . لحاكم أعظم ، وأكبر ، وأغنى امبراطوريات عصره وعالمه ، يعيش بها طول العام وعَرضه ، وتعيش معه أسرته التى كانت هى الأخرى –

منذ أيام – لاغير ، تَخُبُّ فى النعيم خَبًّا . . وتَعُبُّ المباهج عَبًّا . . ! ! !

ولكن ، أى بأس ؟ !

أليس قد رفع الحقَّ شريعة والعدلَ منهاجاً ؟ !

فليكن حَسْبُه ألاَّ تسقط الراية من يمينه . . وليكن حسبه أن يُحلِّق بها فى مستوًى تتقطع دون بلوغه الأنفاس . . ! !

كل أرضه تركها للدولة . .

كل ثروته النقدية ، دفعها إلى خزانة الدولة . .

بل لقد جمع ثيابه وحُلله الرافهة ، وحُلل زوجته وأولاده . .

ثم جمع مراكبه وعُطوره ومَتاعه ، ثم دفع ثمنها الذى بلغ ثلاثة وعشرين ألف دينار إلى بيت المال . . ! !

ثم حَرم نفسه حتى حقها المشروع فى راتب الخلافة الذى كان يستطيع أن يتنازل عن نصفه أو عن ثلثيه ، لكنه رفضه جميعاً إلى آخر درهم منه . . وراح يعيش بعائد أرضه الصغيرة – مائتى دينار فى العام – بواقع ثلاثة أرباع دينار فى اليوم ، لأمير المؤمنين وزوجة أمير المؤمنين ، وأولاد أمير المؤمنين . !

أفما كان يكفيه أن ينفرد هو بأعباء القدوة ، تاركاً أهله وأولاده يحيون ولو فى مستوى حياة أوساط الناس . . ؟ ؟

إنه يعتبر هذا – لوحدث – احتيالا على المسئولية ، وهروباً من تبعات القدوة ، ويرى النار تمدُّ إليه ألسنتها اللاهبة ؛ لتطوقه حساباً له وعقاباً . . ! !

ومَن ظن أننا نبالغ فى التصوير ، ونُسرف فى صبغ الألوان فليطالع هذه الواقعة :

لقد عاد يوماً إلى داره بعد صلاة العشاء ، ولَمح بناته الصغار .فسلم

عليهن كعادته ، وبدلاً من أن يسارعن نحوه بالتحية كعادتهن . رُحْنَ يُغطّين أفواههن بأكُفّهم ويتبادَرْنَ الباب . .

فسأل : ماشأنهن . . ؟؟

فأجيب : بأنه لم يكن لديهن مايتعشَّين به سوى عدس وبصل . . فكرِهْن أن يَشمّ من أفواههن ريح البصل فتحاشَيْنَه لهذا . .

فبكى أمير المؤمنين ، وقال يخاطبهن :

« يابناتى . .

ما ينفعكُن أن تعَشَّين الألوان والأطايب ، ثم يُذهَب بأبيكُنَّ إلى النار . . ؟؟ . . » ! ! !

وترى إحدى بناته الصغار صديقة لها تزين أذنيها بلؤلؤتين جميلتين ، فترسل إحداهما إلى أبيها ضارعة أن يشترى لها مثلها .

ويدعو أمير المؤمنين خادمه ، ويأمره أن يجى بجمرتين ملتهبتين . . ثم يطلب ابنته فيقول لها :

« إن استطعتِ أن تجعلى هاتين الجمرتين فى أذنيك ، جئتك بلؤلؤتين كهذه » . . ! !

إن مسئولية القدوة – إذن – لاتنحصر فيه ، هو الخليفة والحاكم . . بل – وحسب منهجه وتقديره – تنال أهله جميعاً ، حتى بُنَيّاته الصغار . . !

وهكذا راح يحملهم على التضحية فى سبيل المسئولية والقدوة . .

اقترب يوماً من زوجته فاطمة ، وقال لها :

« إنك لَتعلمين من أين أتاك أبوك – عبدالملك بن مروان – بهذه الجواهر ، فهل لك أن أجعلها فى تابوت ، أضعه فى أقصى

بيت المال ، وأنفق مادونه ، فإن خَلَصْتُ إليه أنفقته فى حاجات المسلمين » . . ؟ ؟

ولم يكن قد بقى لفاطمة سوى هذا الحُلِىّ وهذه الجواهر ، وهى عزيزة عليها ؛ لأنها هدية أبيها لها فى عُرسها وزَفافها . .

ولكنها لاتُجادل زوجها « القديس » حتى فى هذه . . وتجرد منه نحرها ، ومعصميها ، فى غبطة ورضاً . . ! !

* * *

ويغادر – أمير المؤمنين – قصور الخلافة ، ويأوى إلى دار متواضعة . . ثم لا تشهد هذه الدار إيقاد النار إلا لِماماً . .

ويأخذ على نفسه العهد ألاَ يَستحدث لنفسه شيئاً من أشياء الدنيا ومتاعها حتى يلقى ربه . .

يحدث ابن عياش ، فيقول :

« كان لعمر مِرقاتان يرقى عليهما من صحن داره إلى حجرته . .

« فتهدَّمت إحدى المرقاتين ، فأعاد بناءها رجل من أهله . .

« فلما جاء « عمر » ووجدها . سأل : مَن صنع هذا . . ؟

قالوا : فلان . قال : إلىَّ به . .

« فلما جاء قال له عمر . وَيحك أنَفِسْتَ على « عمر » أن يخرج من الدنيا ولم يضع لَبِنة على لبنة . . ؟ !

« والله ، لولا أن يكون هدمى لها إفساداً بعد إصلاح لهدمتها ورددتها إلى ما كانت عليه . . » ! ! !

* * *

ويدخل عليه فى داره أحد خاصّته المقربين ، فيجده بركن منها تغطيه الشمس ، وقد دثّر جسمه كله فى إزار . . وحَسِبه الزائر مريضاً ، فسأله ، ما بالُه . . ؟

فأجاب أمير المؤمنين :

« لاشيء ، غير أنى أنتظر ثيابى حتى تجفّ . .

قال الزائر : وما ثيابك يا أمير المؤمنين . . ؟

قال عمر : قميص ، ورداء ، وإزار . .

قال صاحبه : الا تتخذ قميصاً آخر ، ورداء ، وإزاراً . . ؟

قال الخليفة : كان لى ، ثم بَلِيَتْ . . ! !

قال الزائر : ألا تتخذ سواها . . ؟ ؟

وهنا شَرِقَتْ كلماته بدموعه ، وراح يُجهش بالبكاء مسنداً جبهته على راحتيه ، مُردداً آية القرآن الكريم .

[« تلك الدارُ الآخرة نجعلها للذين لايُريدون عُلُوًّا فى الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين » . . ! ! !]

ولما كان يريد للدولة فى عهده أن تكون رحمة وحناناً ؛ فقد راح يمزق عنها كل أقنعة الصَّلَف والكبر والتمايُز . .

وأيضاً ، بدأ بنفسه ، فمنع الحراس أن يسيروا بين يديه . بل منعهم كما منع الناس جميعاً أن يقوموا له حين يَطلُع عليهم ، وقال لهم :

« إنما يقوم الناس لرب العالمين » ! !

وناداه يوماً رجل من المسلمين قائلاً : [يا خليفة الله فى الأرض] . .

فأخذته الرّعدة الصالحة ، وصاح فى الرجل :

« مَـــــهْ . .

« إنى لما وُلدتُ أسمانى أهلى « عمر » فلو ناديتنى يا « عمر » . أجبتك . .

« ولما كبرت اخترت لنفسى كُنية ، فكُنيت « أباحفص » ، فلو ناديتنى – يا أبا حفص – أجبتك . .

« ولما وليتمونى أموركم سميتمونى « أمير المؤمنين » فلو ناديتنى – يا أمير المؤمنين – أجبتك . .

« وأما خليفة الله فى الأرض ، فلست كذلك . .

« إنما خلفاء الله فى الأرض رسله وأنبياؤه » . . ! !

ومَنع الدعاء له فوق المنابر فى خطبة الجمعة . وأرسل بذلك كتاباً حازماً إلى ولاته فى جميع الأقاليم ، قائلا فيه :

« مُروهم فليصلوا على النبى عليه السلام . وليكن فيه إطناب دعائهم وصلاتهم . .

« ثم لِيُصَلُّوا على المؤمنين والمؤمنات . .

« ولْيَستنصِروا الله . .

« وليكن دعاؤهم لعامَّة المسلمين . .

« ولْيدَعوا ماسوى ذلك » ! !

* * *

وإذا كان قد حمل وأهلُ بيته معه مسئولية القدوة على هذا النحو المجيد والفريد . . إذا كانوا قد حملوها طائعين راغبين ؛ فإن هذا لايكفيه ، بل لابد أن يحملها أيضاً أمراء بنى مروان جميعاً طائعين إن شاءوا . . وإن أبَوْا فكارهين . . ! !

لن يَدَعهم يتبذَّخون باسمه ، ويتخذون من قرابته ملجأً ومغنَماً .

إذا كان ولابد ، فلتكن هذه القرابة ملجأً لهم من أطماعهم وشهواتهم . . ومَغْنَماً بالْتزامهم منهج أمير المؤمنين . . ! !

أما دون ذلك ، فلن تكون دنياهم فى عهده كدنياهم قبل عهده . .

لن يَظَلّوا طبقة فوق الأمة . . ولن يُدْلِف إلى قصورهم وجيوبهم ثلث الدخل العام للدولة ، كما كان أمرهم من قبلِ أن تُهِلّ على الدنيا أيام الأغَرِّ ابن عبد العزيز . . ! !

ولقد راحوا بكل ضراعاتهم يحاولون الإبقاء على بعض امتيازاتهم ، فلما أخفقوا راحوا يُناورون ، ولما أخفقوا ، راحوا يهددون . .

ولكن رجل القداسة وقف لهم كالقدَر ، وأحكم وضع الشكائم على غرورهم وأهوائهم ، ثم دفع بهم جميعاً أمامه على طريق العدل والحق . مُصَفِّياً ترفَهم المنهوم . . ! !

حدث يوماً أن أرسل إلى كل أمير وأميرة بقدر من المال يدبرون به أمورهم ، ويستقبلون به حياتهم الجديدة الخشِنة ، فتنادَوْا واجتمعوا ، وقرروا أن يوفدوا إليه صديقاً له يرجوه باسمهم أن يرفع لهم العطاء . .

فكان جوابه لهذا الصديق :

« والله لقد ندمت على هذا الذى أعطيته إياهم ، وإنى لأعلم أن فى المسلمين من هو أحق به ، وأحوج إليه منهم » . . !

وعاد مبعوثهم إليهم يَقرع أسماعهم بكلماته المنذرة ، ويقول لهم :

« يابنى أُمَيَّة . .

« لاتلوموا إلا أنفسكم ، فقد عَمَدْتُم إلى صاحبكم عبد العزيز بن مروان » فزوجتموه حفيدة « عمر بن الخطاب » فجاءتكم بعمر بن

الخطاب ، ملفوفاً فى ثياب « عمر بن عبد العزيز » ، فلا تلوموا إلا أنفسكم » ! ! !

* * *

ويعود الخليفة ليضع كلتا عينيه على الولاة والقضاة ، والأمناء على الأموال العامة – أولئك الذين سمعناه من قبل ينعتهم بأنهم والخليفة معهم يشكلون أركان الدولة والسلطان .

لقد كان يرى أن الولاة ؛ بحكم كونهم نوابه فى حكم الأقاليم .

والقضاة ؛ بوصفهم أهل الفصل فى مصاير الناس بما يملكون من كلمة الشريعة والقانون .

وأمناء بيوت المال ؛ بما لهم من سيطرة مباشرة على الأموال العامة وأرزاق الناس .

نقول : كان يرى فى هذه المناصب أخطر مناصب الدولة وأكثرها ثقلاً وحساسية . . كما كان يرى فى استقامة أمرها العاملَ الأول والأهم لتمكين الخليفة من حمل مسئولياته فى قسطاس وسَداد . .

وهكذا راح القديس يستكمل سماتِ القدوة للدولة ، باختيار وُلاته ، وقُضاته ، وأمنائه فى حرص من يختار عاقِبَته ومَصيره ! !

ولقد كان من المفروغ منه ، أنه لن يجد من هؤلاء من هو فى مستوى ورعه ، وشموخ نُسكه وفضائله ، فراح يجتهد فى العثور على من يكونون فى مستوى رَجاحته وثقته . .

وسارَع ، فعزل جميع الولاة السابقين الذين عملوا فى خدمة المظالم السابقة . ثم ولَّى مكانهم من اصطفاهم للمهمة الجليلة أمثال : « أبى بكر بن

حزم » و« عبد الرحمن القشيرى » و« عدىّ بن أرطاة الفزارى » وآخرين من طرازهم وإخوانهم :

وكان أول ما أوصاهم به ، هذه الوصاة الجامعة الرائعة :

« كونوا فى العدل والإصلاح والإحسان ، بقدر من كانوا قبلكم فى الظلم والفجور والعدوان » . . ! !

كذلك ، كان أول ماقدم به ولاته للناس هذه الكلمات الأمينة :

« إنى قد وليت عليكم رجالاً . .

« لاأقول : إنهم خياركم ، ولكنى أقول : إنهم خير مِمَّن هم شرٌّ منهم » ! !

إنه رجل يضع ذاته كلها فوق الميزان . . وإن كل حركاته وكلماته وقراراته ، ومشاعره لتتحرك بقدَرٍ معلوم . ! !

ويمضى ولاته إلى أقطارهم ، ويسهرون على مسئولياتهم فى ولاء صادق . . تقودهم على الطريق وتثبت أقدامهم وخطاهم سيرة خليفتهم العادل القديس . . هذه السيرة التى كان أريجُها ينتشر انتشار الضياء ، وعبيرُها يفوح ويهُبّ هبوب الرياح والبُشْرَيات . . ! !

لقد راحوا يخجلون من كل تقصير يَبدُر من أحدهم . . وإذا سوّلتَ لأحدهم نفسُه . شَفاها من وساوسها بمجرد تَذكرُّ خليفته القديس فى حياته الشظِفَة ، ورِقاعهِ البالية ! ! !

وراح الخليفة يُوَاليهم برسائله ووصاياه . . وصية من بعد وصية وكتاباً وراء كتاب . .

لنقرأ واحداً من هذه الكتب :

« . . أما بعد

« فإن من ابْتُلى من أمر السلطان بشيء ، فقد ابتلى ببليّة عظيمة ! !

« فنسأل الله عافيته وعونه . . ؛

« وإنى أدعوك أن تقف نفسك فى سِرك وعلانيتك ، عند الذى ترجو به النجاة من ربك . .

« تذكّر ماسلف منك من خطأ فأصْلِحه ، قبل أن يَتولّى صلاحَه غيرُك . .

« ولا يمنعك من ذلك قول الناس . .

« وكن لمن ولاك الله أمرهم ناصحاً فى دينهم وأعراضهم . .

« واستُر كل عَوْراتهم . .

« واملكِ زمام نفسك تجاههم إذا هَوِيت ، وإذا غضبت » ! ! !

* * *

وكما أحسن اختيار وُلاته ، أحسن اختيار قضاته ، وأمناء بيوت المال . .

وأمر هؤلاء وأولئك ، أن يختاروا معاونيهم وموظفيهم من الأمناء على دين الله ، ودنيا الناس .

وراحت أضواء قداسته وقدوته تتعالى وتتعاظم حتى كانت منارات هادية ، وَسِعت الدولة كلها والأمة جميعها بأنوارها الغامرة وهُداها الوثيق . .

* * *

« وثانياً » : الشُّورَى ضرورة . .

وننتقل الآن إلى المحور الثانى من محاور منهج الحاكم القديس

وأسلوبه ، لنشهد له تجاه الشورى موقفاً فذًّا يمتاز بالعمق وبالشمول .

لقد أدرك أن كل مايَشيده من دنيا صالحة ، وعالَم قويم ، لن يكون ثمة ضمان لاستمراره وإنمائه سوى سياج منيع يصونه ويحميه . . وتمثّل له هذا السياج فى توسيع قاعدة المسئولية حتى تنتظم أصحاب الحق فيها ، حاكمين ومحكومين . .

والسبيل لذلك ، الشورى الخالصة الصادقة . . وبَعْثُ رأى عام ناصح ، وصادق ، وشجاع . ينقُد الأخطاء ويُسهم فى إصلاحها .

لم يكن عصره قد عرف النظم البرلمانية بعد . . لكن ديمقراطية الحاكم مع ذلك كانت تَبِينُ وتُسْفِر كالشمس من خلال أسلوبه فى الحكم ، وطريقته فى اختيار ولاته وبطانته ، واستعداده لتقبل النقد ، وسماع كلمة الحق . ونظرته إلى الأمة التى يحكمها ، ومدَى ولائه لحقوقها وحرياتها . .

وبهذا المعيار والمِسْبار ، يقف « عمر بن عبد العزيز » فى هذا المجال وكأنه نسيج وحده ! ! !

لقد أحاط نفسه بالأبرار الذين لايخافون فى الله لومة لائم ، والذين لا يُزيفون اقتناعهم ، ولا يَلْبِسون الحق بالباطل ، وإن قطعت منهم الرقاب . .

جمعهم حوله ، يفكرون معه . . بل لقد كان يوصى بعضهم أن يجلس تِلْقاءه وهو فى مجلس الحكم ، ويضع عينيه المفتوحتين على حديثه ، وحركاته ، فإن نَسِيَ فقال كلمة ، أو أتى حركة فيها شبهة من خطأ ، نبهوه على الفور بإشارة ، تَعارَف وإياهم عليها . .

* * *

لقد آمن بأن الشورى ضرورة ، ولبست تَرفاً . . وآمن بأنها كلما اتسعت قاعدتها ، استقام الحكم وشاع الحق ، واستَوْثَق العدل ، وعاش الناس كما يريد لهم دينهم وكما ولدتهم أمهاتهم أحراراً . .

من أجل ذلك ، راح فى سرعة الضوء يخلُق رأياً عاماً صادقاً أميناً ، فى طول الدولة وعرضها . .

وراح يضع الحاكمين والمحكومين وجهاً لوجه أمام مسئوليتهما المشتركة ، بل الواحدة فى دَحْضِ الخطأ والتزام الصواب . .

فيكتب للولاة قائلاً :

« إنكم تَعدُّون الهارب من ظلم إمامه عاصياً ،

« ألا إن أَوْلاهما بالمعصية الإمام الظالم » ! ! !

ثم يكتب للناس فى شتّى الأقاليم قائلاً :

« أىّ عامل من عمالى رغب عن الحق ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم . وقد صيّرتُ أمره إليكم ، حتى يُراجع الحق وهو ذَميم . . . ! ! »

ويرسل إلى أحد وُلاته قائلا :

« قد كَثُر شَاكُوك . . وقلّ شاكِرُوك . . فإمَّا اعتدَلْت ، وإما اعتَزلْت » ! ! !

هكذا رفع سلطة الشعب فى وجه سلطة الحكم ، وأسلم نَواصِى ولاته وعماله للرأى العام يقودهم على طريق الحق طائعين أو كارهين .

ولكى يَدْعَمَ هذه السلطة ، فتح أبوابه على مصاريعها لكل شاكٍ أو متظلم من حاكمه ووالِيه . . وأرسل منشوراً موجَزاً إلى جميع الأقطار :

« مَن ظلمة إمامه مَظلمة ، فلاَ إذْن له علىَّ » . .

أى ليقتحم علىّ دارى ، غير منتظر إذناً ، وغير واقف ببابى ! !

* * *

وإنه ليبهرنا أسلوبه الفريد فى بعث الرأى العام الشجاع ، وتزكية حرية النقد ، وشدّ زنادها إلى أقصاه . .

ففى سبيل ذلك ، نراه يرسم من بيت المال جوائز مغرية لكل مَن يكشف عن خطأ ، ويَهدى إلى صواب . . ! ! !

ولنطالع فى إجلال ، المنشور الذى كتبه ، ثم أمر أن يُقرأ على الناس فى المواسم والمحافل والمجامع . .

« أما بعد . .

فأيما رجل قدم علينا فى مظلمة نردّها ، أو أمر يُحيى الله به حقًّا ، أو يميت باطلاً ، أو يجىء بخير . . فله منا مابين مائة دينار إلى ثلثمائة دينار . بقدر ما يتكاءدُه فى ذلك من طول السفر وبُعد الشُّقَّة » . . ! !

أليس عجباً هذا الذى نقرأ ونرى . . ؟ ؟

ألاَ ، وإن أعجب من ذلك ، أن بطل هذا كله رجل لم تكن بيئته ولا عصره بقادرَيْن على تشكيل بَنانِه . .

لكنها صِبْغةُ الله . . ومُعجِزة الإسلام . . ! ! !

ولكم كان صادقاً حين قال :

« لو وكلَنِى الله إلى نفسى لكنتُ كغيرى » . .

لقد راح يضرب المثل الأسمى والقدوة الباهرة فى تقبُّل النقد — هو

الذى لم يعرف الناس له خلال خلافته كلها – خطأ واحداً يستأهل النقد والتفنيد . .

ولقد كانت الغبطة تملأ روحه حين يجد مِن عامة الناس من يقول له : إلى أين ؟ ولماذا ؟ !

هنالك يُرَبِّتُ على كتفه ، ويُدنيه منه ، ويقول له :

« زِدنى ياأخى ، جزاك الله خيراً » ! !

إنه يلتمس الحكمة والصواب وراء ألسنة الصادقين حتى حين يكون أحدهم طفلاً . .

قَدِم عليه وفد من المدينة يوماً ، وتقدم من بينهم غلام صغير ليتحدث باسمهم ويعَرض قضيتهم . فتملأه أمير المؤمنين ، وقال له :

« يابنى . . دع القول لمن هو أسَنُّ منك »

ويبدو أن الغلام العربى الأصيل كان يحمل نُبوغاً مبكراً ، فقد أجاب الخليفة من فوره :

« ياأمير المؤمنين . .

« المرء بأَصْغَريه : قلبِه ولسانِه . .

« ولو كان الأمر بالسن ، لكان فى المسلمين من هو أحق بهذا الأمر منك » . . ! !

وفجأة ، تَنثال دموع الغبطة والفرح من عَينىِ القديس ، ويتهلّل وجهه ، ويهتف بالغلام :

« صدقت . . صدقت »

« عظنِي يا بُنى . . . ! ! »

وإن أحد الناس ليقتحم مسجد المدينة يوماً شاهراً سيفه ، يَسُبُّ ويشتم

أمير المؤمنين على ملأ من الناس ، وعلى مسمع من المدينة وحاكمها ، فيعتقله الوالى . . ويرسل لأمير المؤمنين بأمره ويقول فى كتابه : [لقد هممتُ أن أقتله] . .

ولا يكاد عمر يقرأ الرسالة حتى يجيب عليها فوراً .

« أما والله ، لو أنك قتلته لقتلتُك به » . . ! !

ويقتحم مجلس الحكم ذات يوم رجلاً من عامّة الناس ، رافعاً عقيرته فى وجه الخليفة بكلمات تُثير غيظ الحليم . .

فما يزيد أمير المؤمنين على أن يقول للرجل :

« لَعلَّك أردتَ أن يَستفزّنى الشيطان بِعزّة السلطان ؛ فأنالَ منك اليوم فى الدنيا ماتتقاضاه منى غداً عند الله . .

« ولكن ، لا . .

« قم ، عفا الله عنك » . . ! ! !

* * *

ومن أذكى وأبلغ ما أدّاه « ابن عبد العزيز » فى سبيل إنهاض رأى عام أمين على مسئولياته وقادر عليها – حَسْرُ ذلك المدّ الطاغى لدولة الشعر والشعراء التى كانت قائمة يومذاك . .

لقد رأينا فيما سلَف من حديث ، كيف اصطنع الأمويون الشعراء لتزييف الحق ، ولتمكين سلطانهم على حساب كل القيم والأخلاقيات ، حتى لقد كانوا عقَبة كئوداً فى سبيل معرفة الحقيقة ورؤيتها . . والآن ، يتقدم البطل والقديس ، مُطْلِقاً رياح الحقيقة وراء هذا الضباب فتكنسه وتُبدّده ، وتترك آفاق المعرفة نظيفة نقية مُشرقة بنور الحق وحده ! . .

لقد وقف يخطب الناس فقال :

« من أراد أن يَصحبنا ، فليصحَبْنا بخمس ، أو فليفارقْنا . . .

* يرفع إلينا حاجةَ من لايستطيع رفعَها . .

* ويُعيننا على الخير بجُهده . .

* ويدلُّنا على مالا نهتدى إليه من الخير . .

* ولا يغتابَنَّ عندنا أحداً . .

* ولا يَعرِضَنّ لمالا يعنيه . . »

ومن الدلالة الطريفة والبالغة ، أن جميع كتب التاريخ التى تنقل هذا الخطاب ، تُتبعه بقولها :

[فانفضَّ عنه الشعراء والخطباء
وثبَت معه الزّهاد والفقهاء . . !]

أجل . . فمعظم شعراء عصره ، وعلى رأسهم الأخطل ، والفرزدق وجرير ، لم يكن لهم مع هذه الخمس ولا مع واحدة منها رَحِمٌ ولا قَرابة . . ! !

فهم إمّا مادحون بغير حق . . وإما هَاجُون بغير حق أيضاً . .

وهم فى كلتا الحالتين يحرِمون الرأى العام رؤية الصديق بما ينشرون من أضاليل وبهتان . .

والآن ، يجيئهم رجل عظيم ، لاحاجة به إليهم .

فليست له عداوات ، يحتاج للشعر فى تأجيجها . .

وليس له طموح ، يحتاج للشعر فى قَرع الطبول له . .

وليست له شهوات يحتاج للشعر فى تزيينها ، ولا أخطاء يحاجه لتبريرها . .

وليس له بالسلطة ولَع ، فيحتاج للشعر فى حمايتها واستبقائها . .

ثم إنه لاوقت لديه ، ولا وقت لدى أمته لهذا الهذَر العريض الذى ملأ به الشعراء ساحة العصر الأموى كله . . ! !

وهكذا جمع عزمه ، وطرد الشعراء عن بابه ، ولم يعد أحد منهم يظفر بدرهم واحد من أموال الأمة ، مكافأة على مدح أو اتّقاء لهَجاء . . ! ! !

وراح – أمير المؤمنين – يشرف بنفسه على إمداد الرأى العام بكل الصدق ، وبكل الحقيقة عن طريق منشوراته التى كان يرسلها للولاة ، ويبعث بها إلى شتى الأقطار . .

ولقد بدأ بدحْرِ تلك الخطيئة الفاحشة التى كان الحكم الأموى يمارسها فى سفالة . وهَى لعن « الإمام على » كرم الله وجهه على المنابر . . ! !

وأمر أن يقرأ الخطباء مكان الكلمات الآثمة – تلك الآيات الطاهرة :

« ربَّنا اغفر لنا ، ولإخواننا الذين سَبقونا بالإيمان ، ولا تجعَلْ فى قلوبنا غِلاً للذين آمنوا . ربنا إنك رءوف رحيم » . .

« إن الله يَأمُر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القُرْبَى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى – يَعِظُكم لعلكم تذكَّرون » . .

لقد وضع الكذب ، ورفع الصدق . .

ودحرَ الباطل ، وآزر الحق . .

وكان ذلك إسهاماً فعّالاً فى إنهاض رأى عام حَصيفٍ وأمين . .

وأميرُ المؤمنين - عمر – لا يدرك عظمة الشورى وقيمتها إدراك حاكم عادل صالح فحسب . . بل إنه ليدرك كذلك جوهرها إدراك فيلسوف . . ! !

فهو لايرى فيها مجرد تنظيم عادل لعلاقة السلطة بالأمة ، وتبادُل

المسئولية تجاه الدولة والمجتمع . . بل يَمضى فى اتجاه التحليل النهائى لجوهرها ووظيفتها ، ليرى ذلك متمثلاً فى ظَفر كل فرد من الناس بحقه فى اختيار اقتناعه . . وحقّ هذا الاقتناع فى التعبير عن نفسه ، فى غير زيف أو غُموض . . .

ذلك أن الناس حين يُزيفون اقتناعهم بسبب رغبة ، أو رهبة ، فإنه يستحيل فى الوقت نفسه ، وللسبب نفسه معرفة آرائهم . .

ومادامت الآراء الصادقة هى مادّةَ الشورى وأداتَها ، فإن اختفاء هذه الآراء إذن ، يُعتبر وَأْداً للشورى وإلغاءً لمهمتها . .

وهنا تُطِل علينا عظمة القديس « عمر » وهو يضع اقتناع الناس — حتى حين يخالفهم ويخالفونه — موضع القبول والتقدير . .

والوقائع التى تحكى وَلاءه الوثيق لحرمة الاقتناع تزدحم بها الشهور التسعة والعشرون التى قضاها خليفة وإماماً . . لكننا نختار منها هذه الواقعة التى تكاد تعطينا التعبير النهائى لهذا الولاء . .

لعلنا نعرف الكثير عن الخوارج الذين انشقّوا على « الإمام علىّ » كرم الله وجهه ، حتى اغتاله واحد منهم . . هؤلاء الذين تحوّلوا بعد ذلك ، وخِلال العصر الأموى إلى فرق كثيرة ، حملَت سيوفها وخاضت ضد الدولة معارك كُثُراً ذهب منهم خلالها ألوف الضحايا . .

وبالإضافة إلى نشاطها المسلّح هذا ، فقد كان لبعضها آراء وعقائد لايزكيها قرآن ولاسُنة . .

ومع ذلك كله ، نرى الخليفة العابدَ الأوّاب لاينسى حتى فى فِتنهم هـــذه ، حقّهم فى أن يكون لهم اقتناعهم ، ثم لاينسى واجبه فى احترام هذا الحق لهم ، وواجبه فى إعطائهم فرصة التعبير عن رأيهم بصوت مرتفع ،

مادام نشاطهم لايتحول إلى عمل إرهابى يستهدف سفك دماء الآخرين الذين يخالفونهم فى اعتقادهم واقتناعهم . .

بل إننا سنراه يرى بحصافته الباهرة ، أن السبيل الأمثل لصرفهم عن التآمر والإرهاب ، هو رفع الغطاء عن البخار المحبوس ، وتمكين الرأى الحبيس المكبوت من الانطلاق ، قبل أن يتحول داخل نفس صاحبه المقهورة إلى حِقد موتور ، وقذيفة رَعْناء . . ! ! !

وهكذا ، لاتكاد إحدى تلك الفرق تتحرك فى الأيام الأولى من خلافته ، مستأنفة تمردها المسلح ، حتى يُرسل إلى زعيمها هذا الكتاب :

« أما بعد . . .

« فقد بلغنى أنك خرجت غضباً لله ولرسوله . . ولستَ أولى بذلك منى . .

« فَهَلُمَّ أُناظِرْك . .

« فإن يكن الحقّ معنا ، تدخل فيه ، وإن يكن الحق معك ، نراجع أنفسنا وننظر فى أمرنا . . ! ! »

ويقرأ الزعيم الثائر كلمات (القديس) فيخجل من نفسه ، ويلقى سلاحه . ويُرسل مبعوثين إلى عاصمة الخلافة ، يُجريان مع الخليفة حواراً حول ما بينهما من قضايا وخلاف . ويَجرى الحوار بينهما رائعاً ، صادِعاً ، تتجلّى خِلالَه موهبة – ابن عبدالعزيز – فى رؤية الحقيقة ، وتوجيه المنطق ، وامتلاك الأفئدة والعقول . . . ! !

ثم تكون عاقبة هذا الموقف العظيم ، أن تُلقى تلك الفرقة المتمردة سلاحها – بعد ماتبينت أنها فى عصر رجل جديد ينتمى لعصر النبوة والوحى . . رجل يخجل الشيطان نفسه أن يَشْغَبَ عليه ، أويتحدَّاه . . ! !

على أن لهذه الواقعة – برغم دلالتها المفيضة – مثيلاً آخر يكمل الصورة التى ترسُم ولاء هذا الخليفة العظيم لحرية الرأى وحُرْمة الاقتناع .

فهو على الرغم من معرفته بفساد الكثير من منطق الخوارج وحججهم ، لم ير القوة قط سبيلا لِدحْض هذا المنطق وإسكاته – بل رأى أن قيام منطق أهدَى ، وحجة أوضحَ وأصدقَ ، هو السبيل لإظهار الحق وإخماد الباطل .

وهكذا نلتقى به ، وقد قامت فرقة أخرى من الخوارج – هم « حَرُورِيَّة المُوصِل » يَسيحون فى البلاد ناشرين آراءهم وأفكارهم . . ويكتب إليه حاكم الموصل ، يستأذنه فى قمعهم وإسكاتهم . .

أقول : نلتقى بأمير المؤمنين يجيب واليَه فيقول :

« إذا رأوا أن يَسيحوا فى البلاد فى غير أذًى لأهل الذمَّة . .
وفى غير أذًى للأمة . . فليذهبوا حيث شاءوا . .

« وإن نالوا أحداً من المسلمين ، أو من أهل الذمّة بسوء ، فحاكمهم إلى الله . . »

بالله ، ما أعدلَه . . وما أروعه . . ! !

إنه لايرى لنفسه حقًّا – أىّ حق – فى الحجر على آراء الآخرين ولا فى الوصاية عليها . .

وهو – كحاكم – لايرى لنفسه أى حق فى التدخّل إلا حين يواجهه خطر مسلح يتهدد سلامة الدولة والأمة

أما دون ذلك ، فلكل رأىٍ حرمته ، ولكل اقتناع حقه وحريته . .

وهذا النهج الراشد السديد ، هو الذى مكّن للشورى فى عهده تمكيناً تكاد تتقطع دون بلوغه أنفاس كل الديمقراطيات . . . ! !

ولطالما قالوا له يومئذ : إن هؤلاء الخوارج ينشرون بين الناس أفكاراً زائفة ، ويَلبِسون الحق بالباطل ، وإنَّ تركهم يجوبون البلاد بعقائدهم هذه ، عمل يُنذِر بسوء مآب . .

فلا يزيد القديس العادل على أن يُذكِّر مُحدثيه ومُحرِّضيه بآيات القرآن العظيم التى نهى الله فيها رسوله عن أن يَسُوس ضمائر الناس بالقَهر والبطش . .

« أفأنتَ تُكْرِه الناسَ حتى يكونوا مؤمنين » . . ؟

* * *

« وما أنتَ عليهم بجبَّار » . . ! !

« إنما أنت مُذكِّر ، لَسْتَ عليهم بمسيْطر » ! !

ولقد وقفتِ العواقبُ بجانبه ، وأثبتت صدق رأيه وذكاء تقديره . فالخوارج الذين لم يضعوا سلاحهم يوماً واحداً منذ حكم معاوية ، حتى سليمان بن عبدالملك ، والذين لم تَزدهم كثرة ضحاياهم إلا إمعاناً فى التحدّى وضَراوة فى القتال . . نراهم فى عصر هذا القديس الجليل يَغمِدُون سيوفهم ، وينسَوْن طوال عهد خلافته كل مالهم عند الأمويين من تِرات ، وثارَات . . . ! !

* * *

« وثالثاً » : **المال وَديعَة** . .

وأمامَ المشكلات الاقتصادية ، ومُشكلات الدخل والتوزيع التى تحير الدول فى كل العصور والأزمان ، لم تأخذ « عمر » حَيرة ، ولم تُعْضِله أزمة . .

ذلك أنه مؤمن بأن الحق والعدل قادران على تدبير أمرهما أعظمَ وأهدى مما تدبر ألمع عبقريات التنظيم والاقتصاد . .

والدولة المسلمة – يومئذ – لم يكن ينقصها المال . . إنما كان ينقصها اتباع الحق فى تقاضِيه . . واتباع العدل فى توزيعه . .

وقبل هذين ، بَعثُ حرمة الأموال العامة وقداستها فى ضمير الدولة ، بكل مسئوليها . . وفى ضمير الأمة ، بكل أفرادها . . إن موقفه من الثروة القومية ، يبدأ من إيمانه بقول الله تعالى :

[وأَنفِقوا مما جعلكم مُستَخْلَفين فيه] .

فمصادر الإنتاج ، والإنتاج ، والثروة . . كل ذلك إذن وديعة الله عند الناس . . دُوَلاً ، وأمماً ، وجماعات ، وأفراداً . .

ولِودائع الله هذه حُرمتها التى تنأَى بها عن التلَف ، والسرَف والبغى ، والاحتكار . .

فإذا اكتسَبت هذه الودائع صفة أخرى ووصفاً آخر ، فصارت أموالاً عامة ، فإنّ حُرمتها وقداستها تربو وتزداد . .

ذلك أن معنى كونها [أموالاً عامة] أنها حقوق شائعة وثابتة لكل أفراد الأمة . . لكل أرملة فيها وكل يتيم . . لكل مُسنٍّ وطفل ، ورضيع . . لكل فقير ، وعاجز ، ومريض . .

وهى بهذه المثابة . مَثابَة أنها – أولاً – ودائع الله ، و– ثانياً – حق الناس ، جميع الناس . . تتمتع بحرمة بالغة وقداسة وُثْقَى . . .

«ابن عبد العزيز» يرى نفسه مسئولاً عن إعلان هذه الحرمة وصيانة هذا الحق . .

وإنه لَيعبِّر عن ذلك فى كلماته الفاصلة :

[إنما أنا حَجِيجُ المسلمين فى مالهم] ! !

كما يُعبِّر بسلوكه تجاهها تعبيراً يبهر الألباب . .

إنه يرسل خادمه يوماً ليسخِّن له الماء كى يتوضأ به فى يوم شات زمهرير . .

ويعود الخادم مسرعاً بالماء الدافىء ، فيسأله الخليفة : أين أدْفَأَه بهذه السرعة . . ؟

فيجيب الخادم : فى مطابخ المسلمين . .

وكان - عمر - قد توسع فى إنشاء مطابخ عامة للناس يُنفق عليها من بيت المال

فعاتب الخليفة خادمه على صنيعه ، ورفض أن يمسَّ الماءُ جسده حتى يذهب الخادم إلى القائم على هذه المطابخ بثمن تسخين هذا القدر الضحل جدًّا من الماء . . ! ! !

وإنّا لنعرف تلك الواقعة المتواترة ، حين كان يباشر أمور الدولة ليلاً على مصباح يُؤخذ زيته من بيت المال ، فإذا عرض له فى أثناء ذلك طارئ شخصى - ولو كان لايستغرق سوى لحظات - فإنه يطفئ مصباح بيت المال ، ويُوقد شمعته أو مصباحه ، حتى ينتهى من ذلك الطارئ . . ! !

ولقد يرى البعض فى هذا المسلك نوعاً من التزُّمت المغرِق . .

ولقد يرون فى إعطاء هذه الشكليات العابرة كل هذا الاهتمام الورع من رئيس دولة عظمى ، كالدولة التى كان يحكمها - ابن عبد العزيز - أمراً غير مألوف . . وربما غير مُستساغ . .

غير أنهم حين يفكرون على هذا النحو يفوتُهم أن الذى كان يحرك اهتمام الخليفة وورعه ، لم تكن تلك الشكليات ذاتها .

إنما هو المعنى الكبير الذى يملأ ضميره ، ويشكِّل سلوكه تجاه الأموال

العامة وحُرمتها وقداستها . .

وبعد ذلك يستوى أن يكون هذا المال . عَدْلَ درهمٍ من زيتِ مصباح . . أومِلء حجرةٍ فضةً وذهباً . . ! !

إنه يذكُر ، ويذكِّر الناس دائماً بالآية الكريمة :

[وَمَنْ يَغْلُلْ ، يأتِ بما غَلَّ يوم القيامة] ! !

والغُلول عنده فى أحقر الأشياء ، مِثله فى أكثرها وأخطرها . .

وفيما يستأثر به لنفسه ، مِثله فيما يجود به على غيره ! !

بل حتى الهدايا ، رآها غُلولا ، أو شيئاً يشبه الغلول . .

جاءته يوماً هدية ، فاعتذر عنها — فقيل له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية . .

فأجاب قائلا :

[لقد كانت للرسول هدية ، ولكنها لنا رِشوة] ! !

* * *

إن موقفه من أموال الأمة لَعجيب . ثم عجيب . . ! !

وإن لها فى فؤاده الذكى التقىّ لَحرمة تضاهى حرمة الإيمان ذاته ، وحرمة التوحيد . . ! !

يطلب منه أحد ولاته الإذن بمزيد من الشموع التى كانت دار الإمارة تُضاء بها ، ويُضاء بها للأمير وهو فى طريقه إلى المسجد لصلاة العشاء والفجر . .

فيجيبه الخليفة بكتابه هذا :

« لقد عَهِدتُك يا ابن أم حَزم ، قبل أن تكون والياً ، تَخرج

من بيتك فى الليلة الشاتية المظلمة بغير مصباح . .

« ولَعمرى ، لأنتَ يومئذ خير منك اليوم ، ولقد كان فى فَتائِل أهلك ما يُغنيك » ! ! !

ويكتب إليه والٍ آخر ، يطلب المزيد من الأقلام وورق الكتابة ، فيجيبه الخليفة أيضاً :

« إذا جاءك كتابى هذا ، فأَرِقَّ القلم ، واجمع الخط ، واجعل الحوائج الكثيرة فى الصفحة الواحدة . .

« فإنه لاحاجة للمسلمين فى فَضل قولٍ أضرَّ ببيت مالهم . . » ! !

هنا بيت القصيد . . [أضَرَّ ببيت مالهم] ! !

فالمشكلة ليست مشكلة قليل أو كثير من الشموع والأقلام والأوراق . . فما من دولة يعجزها أن تملأ أرضها شموعاً وأقلاماً وورقاً . .

إنما المسألة فى وعى « الحاكم القديس » هى حرمة هذه الأموال وقداستها . . هى تجنب التفريط فيها . . هى درجة الولاء لمسئولية رعايتها وحفظها . . وبهذا المعيار يصبح كل عبث بها مرفوضاً مهما تكن ضآلة مقداره . .

ذلك أن الإسراف الذى يتمثل اليوم فى شمعة أو قلم . . سيتمثل غداً – إذا استهين بأمره ، فيما هو أوخم عاقبة وأسوأ مصيراً . . ! !

* * *

هكذا أرسى لحرمة الأموال العامة قواعد راسخة من الإجلال والتقديس .

ونعود إلى موقفه من « مشكلة الدخل والتوزيع »

قلنا : إن الدولة يومها لم يكن ينقصها الثراء . . إنما كان ينقصها

تقصى الحقّ فى جمعه . . والعدل فى توزيعه . .

ففيما يتعلق بالدخل . . نرى الخلفاء قبله ، وقد أرهق الترف والسَّرَف ميزانية الدولة ، راحوا يُعوّضون ذلك بجمع المال بوسائل غير مشروعة ، وضرائب غير عادلة . .

فأهل الكتاب الذين يعتنقون الإسلام ، يضع عنهم الدين ضريبة الجزية فوراً . . لكن الدولة الأموية تأبى فى ذلك حكم الإسلام ، وتُبقى الضريبة فوق كواهل الذين أسلموا ، مسوغة ذلك بأنهم إنما يسلمون فِراراً من الضريبة . . ! !

ويجىء الخليفة العادل فيرفض هذا التسويغ الزائف ، ويُعلن أن فرح الإسلام بفرد واحد يدخل دائرة نوره وهداه ، خير من ملء الأرض مالاً وذهباً . .

ويُطلِق أمير المؤمنين كلماته المضيئة هذه :

« إن الله بعث – محمداً – هادياً ولم يبعثه جابياً » ! !

ولقد أرسل إليه واليه على العراق « عدىّ بن أرطاة » يقول : [إن الناس قد دخلوا فى الإسلام أفواجاً ، حتى خشيت أن يقل الخراج] . .

فيجيبه الخليفة المقْسِط العظيم :

[والله ، لَوددْتُ أن الناس كلهم يُسلمون ، حتى نكون أنا وأنت حرَّاثين نأكل من كَسْبِ أيدينا . ! ! !]

كذلك راح يتتبع كل الضرائب التى كان الخلفاء السابقون قد فرضوها على الناس فألغاها جميعها .

بل وحتى الضرائب المشروعة ، مثل زكاة الزروع والثمار ، كان يضعها عن الناس عندما تنزل بمحاصيلهم جوائح ، أو تتعرض لبوار .

هاهو ذا يكتب لواليه على اليمن « عروة بن محمد » .

« أما بعد . .

« فقد كتبتَ إليّ تذكُر أنك قدمت اليمن ، فوجدتَ على أهلها ضريبة من الخراج ثابتة فى أعناقهم كالجزية يؤدونها على كل حال . . إن أخْصَبوا ، أو أجْدَبوا . . إن حيوا ، أو ماتوا .

« فسبحان الله رب العالمين ! ! ثم سبحان الله رب العالمين ! !

« إذا أتاك كتابى هذا ، فدع ما تنكره من الباطل إلى ما تعرفه من الحق . .

« واعلم أنك إن لم ترفع إليّ من جميع اليمن إلا حفنة من كَتَم[1] . فقد علم الله أنى سأكون بها مسروراً مادام فى ذلك إبقاء على الحق والعدل » . . ! ! !

ولعل بعضنا يأخذه العجب . . فبينما كان المتوقع منا ونحن نتحدث عن « الدَّخْـل » أن نشير إلى اكتشاف مصادر جديدة تزيده ، وموارد ثرَّة تُضاعفه وتُنمّيه ، إذا بنا نُطرِى سياسة الخليفة تجاه الدَّخل العام ، لأنه ألْغىَ الكثير من تلك المصادر والموارد . . ؟ !

ولكن ، ماحيلتنا ، وهذه فلسفة القديس المبارك الميمون - ابن عبدالعزيز - . . ؟ !

إن المسألة عنده ليست مسألة كثرة . . بل مسألة وَفرة . .

والوفرة ، تكون فى بركة الحلال المشروع ، لا فى كثرة الحرام المغتصَب . .

ولعل من واجبنا قبل أن نغادر هذه النقطة من الحديث ، أن نقول

(١) الكتم . نبات يخضب به الشعر ، ويصنع منه مداد للكتابة .

لبعض المؤرخين الذين يردون اضطراب مالية الدولة بعد موت أمير المؤمنين – عمر – إلى سياسته الضرائبية هذه . .

من واجبنا أن نقول لهم ! أغلب الظن أنكم مخطئون . .

فلقد سارت الأمور فى عهده كله على أتم نَسق . ولم تكن تُنذِر بأى عجز أو اضطراب . بل كانت على العكس من ذلك تُرهِص وتبشر بمزيد من النماء والرخاء والاستقرار .

إنما اضطربت فيما بعد ، حين غاب – البطل – عن مسرح العدالة والحق . . وعاد الترف والسَّرف والفساد ، وسياسة السطو مرة أخرى تعبث وتمرح ، بعد أن رحل الحارس اليقظ ، والحاكم القدِّيس . . ! !

* * *

على أن – الخليفة – حين ألغى الضرائب الظالمة ، أتاح فى نفس الوقت مورداً ثَرًّا للدولة ، حين ردَّ إليها جميع الأرض والثروة التى كانت تحت أيدى الأمراء .

ومورد آخر ، اعتبره أمير المؤمنين من أعظم مصادر الدخل وأثراها . . ذلكم هو وضع كل درهم فى مكانه وضرورته . . وتحريم كل تبذير ، وتحريم كل سَرَف . .

أجل . . لقد كان – ولايزال – وضع المال فى مكانه الصحيح وداخل ضرورته المِلحّة وحدها ، خير مورد وأبقى مصدر . .

ولقد التزم – عمر – هذا النهج التزاماً يكاد يكون مطلقاً مع نفسه ، ومع أهله ، ومع ولاته ، ومع ذوى قرباه ، وأصدقائه ، والناس أجمعين .

هاهو ذا أحد المقربين إليه ، الأثيرين لديه – عنبسة بن سعيد –

يذهب إليه يوماً ، يسأله حاجة لنفسه .

فلنطالع جواب الخليفة له :

« ياعنبسة . .

« إن يكن مالك الذى عندك حلالا ، فهو كافيك .

« وإن يكن حراماً ، فلا تُضيفَنَّ إليه حراماً جديداً . .

« أخبرنى ياعنبسة . .

أمحتاج أنت . . ؟ لا . .

أفعليك دين . . ؟ لا . .

« إذن ، فكيف تطمع فى أن أعَمد إلى مال الله فأعطيكَهُ فى غير حاجة . . وأدَع فقراء المسلمين ؟ !

« لو كنتَ غارماً ، لأديت عنك غُرمَك . . أو محتاجاً لأمرت لك بما يصلح شأنك . .

« فليكن لك فى مالك غَناء . .

واتق الله — وانظر من أين جمعته ، وحاسب نفسك قبل أن يحاسبك أسرع الحاسبين » . . ! ! !

إن هذا الذى قاله لصديقه الحميم « عنبسة » كان يقوله لكل من يسأله ماليس له بحق . . على أن هذا الذى هو حق فى تقديره ، لم يكن يتمثل عنده إلا فى ضرورات العيش والحياة .

وهكذا أتيح له أن يحول شَهقات البائسين إلى بسمات متهللة ، وفرح غامر ، دون أن يحول السَّرَاة إلى طبقة بديلة للبائسين .

إن كل ماصنعه بهم أنه أخذ منهم تَرفَهم وتُخمتهم ، ثم تركهم يحيون كراماً متواضعين . . . ! !

* * *

وهنا ينقلنا الحديث من الدخل ، إلى التوزيع . . فكيف راح الحاكم القديس يوزع أموال الأمة ، وأين كان يضعها . . ؟ ؟

لقد رد المال إلى وظيفته الحقيقية ، وإلى دَوْره الأصيل ومسئوليته الأولى فى خدمة الأمة وتغطية احتياجاتها .

لقد بدأ . فرسم حدود الكفالة الشاملة التى ستنهض بها الدولة تجاه مواطنيها جميعاً فرداً ؛ فرداً . . وحدد بالتالى مسئولية بيت المال تجاه تغطية هذه الكفالة كلها .

نرى ذلك فى كتابه إلى وُلاته :

« لابد لكل مسلم مِن :

* مسكن يأوى إليه . .
* وخادم يكفيه مهنته . .
* وفرس يُجاهد عليه عدوه . .
* وأثاث فى بيته . .

« فوفروا ذلك كله . .

« ومن كان غارماً ، فاقضوا عنه دينه » . . ! ! !

والتعبير بكلمة « مسلم » هنا . . لاتعنى قَصْرَ هذه المزايا بل الحقوق على المسلمين وحدهم ، إنما استعمل هذا الوصف لِغَلَبته لا أكثر . . ثم كانت هذه المزايا والحقوق من حق المواطنين جميعاً – مسلمين وأهل كتاب . . . . .

وأمر الخليفة ولاته أن يبدأوا بتغطية حاجات أقطارهم . وما فاض وبقى يُرسَل إلى الخزانة العامة . . ومن قصر دخل إقليمه عن تغطية حاجات

أهله ، أمدّه الخليفة بما يغطّى عجزه .

« استوعِب الخراج وأحرِزه فى غير ظلم . .

« فإن يك كافياً للناس ، فحسنا . . وإلا فاكتب إلىّ حتى أبعث إليك من المال ماتوفر به للناس أعطياتهم » . . ! !

* * *

وراح « المبارك الميمون » ينشئ فى طول البلاد وعرضها دُور الضيافة ، يأوى إليها المسافرون وأبناء السبيل . .

ومضى ، يرفع مستوى الأجور الضعيفة . .

وكفل كل حاجات العلماء والفقهاء ليتفرغوا لعلمهم ورسالتهم دون أن ينتظروا من أيدى الناس أجراً . .

وسخا على ولاته برواتب كبيرة ، حتى يتفرغوا لمهامِّهم وحتى لاتضعف نفوسهم أمام إغراء الحرام . . . ! !

وعلى طول الدولة وعرضها كذلك ، أمر لكل أعمى بقائد يقوده ويقضى له أموره على حساب الدولة . .

ولكل مريض أو مريضين بخادم ، على حساب الدولة . .

وأمر ولاته بإحصاء جميع الغارمين ، فقضى عنهم ديونهم . .

وافتدى أسرى المسلمين جميعاً ، وأغدق عليهم العطاء . .

وكفل اليتامى الذين لاعائل لهم فى جميع أقطار دولته العريضة المترامية . .

وكما فعل جده العظيم - عمر بن الخطاب - من قبل ، فعل هو أيضاً ، فأمر أن يُفرض لكل مولود راتبه وعطاؤه بمجرد ولادته ، وليس بعد

فطامـــه ، حتى لاتتعجل الأمهات فِطام الرضَعاء فيتعثر نموهم ، وتضمحل قُواهم . . ! !

ومن أجل ألاّ يتحول عطاء الدولة إلى فرصة للطامعين ، منَع أن يجمع أحد بين عَطاءين . .

وحرم على جميع العاملين والموظفين ، الجمع بين راتبين مهما تكن الأسباب . ! ! !

* * *

وهكذا تقسَّط الناس جميعاً فى عهده العظيم ماأفاءه الله عليهم من خير ورزق .

وإنا لَنكاد نَذهل أمام ذلك الإجماع التاريخى الذى يحدثنا عن اختفاء الفقر والفقراء فى عهد القديس الورع ، « عمر بن عبدالعزيز » ، حتى لقد كان الأغنياء يخرجون بزكاة أموالهم فلا يجدون فقيراً يأخذها - ويبسط يده إليها . . ! ! !

ذلك أن عدل - ابن عبدالعزيز - لم يكف الناس حاجاتهم فحسب . . بل ملأهم شعوراً بالكرامة والقناعة ، فلم تعد تستهويهم الصدقات مهما تكن كبيرة وكثيرة ، بعد أن أغناهم الله من فضله بالحق ، وبالعدل ، وبعبده الصالح « عمر بن عبد العزيز » ! ! !

« ورابعاً » : **وحدة الأمة وسلامها . . .**

كان الخليفة الصالح قد ورث مجتمعاً ممزقاً يتربص بعضُه ببعض الدوائر . . ويتربص كله بالدولة الدوائر . . ! !

فخلفاء بنى أمية ، كانوا يتوسلون لدعم نفوذهم وسلطانهم بشحذ العصبية والقبلية والإقليمية ، فيختص أحدهم بعطفه القيسية ، ويختص آخر اليمانية . . ويميز أحدهم أهل الشام . . ويميز آخر أهل العراق . .

وانتقلت العدوى من الخلفاء والولاة إلى القبائل وزعمائها ؛ فظهر من ينادى بسيادة أهل الحضَر – وفى مواجهتهم ، ظهر من ينادى بسيادة أهل البادية . .

كذلك كان الخلفاء الأمويون قد جنَحوا للهبوط بمكانة المسلمين من غير العرب – أولئك الذين عُرفوا باسم « الموالى » ففرضوا عليهم الجزية ظلماً ، وحرموهم الحقوق التى يكفلها لهم الإسلام ، على الرغم من بلائهم العظيم ، وبزوغ صفوة منهم حملت لواء الإسلام عالياً فى كل مجال . . !

كذلك كان هناك الفِرَق الكثيرة من شيعة وخَوارج ومُعتزلة منهم من يحمل السلاح فى وجه الدولة وفى وجه خصومه فى الرأى ومنهم من لايحمل السلاح ولكنه يحمل الكلمة المسمومة . . ومنهم من يلتزم حدود المنطق والحِجاج . .

* * *

ورِث « القديس » المجتمع على هذا التمزق والتشتُّت ، فنفخ فيه من روحه الطاهرة الظافرة نفخة مباركة نفَتْ عنه فى لحظة كل هذه الخبائث . وطهرت – لاشكل المجتمع وعلاقاته الظاهرة فحسب – بل ضميره وروحه أيضاً – فشهد مجتمع الإسلام فى أيامه إخاءً وثيق التراحُم . . وأخذ كلٌّ حقه . . وقنع كل بحقه . . ! !

فأما عن الخوارج ، فقد رأينا كيف أسكتهم بالحجة والبرهان .

وأما الموالى ، فقد وضع عنهم إصْرَهُم ، وصحَّح وضعهم .

وأما النزعة القبلية والإقليمية ، فقدطواها بيمينه . .

ولم يعد هناك قيسيون ويمنيون . . ولا عراقيون وشاميون . . ولا عَرب ومَوالى . .

لقد عادت رَحِمُ الإسلام تنتظم جميع أبنائه كالعقد المنظوم ، وسيطرت من جديد روحه العظيمة المتمثلة فى قول الله تعالى :

[إنما المؤمنون إخوة] . .

* * *

ولم يقف تصور « ابن عبدالعزيز » لوحدة الأمة عند هذه الحدود وحدها . . بل امتد إيمانه بالوحدة وفهمه لها إلى وضع الأقليات فأكد دمجها فى جسم المجتمع المسلم ، وصان لها كل حقوقها .

ولقد رأينا فى رسالة مرت بنا من قبل ، أرسلها لأحد ولاته بشأن بعض الخوارج فقال له :

« إن ساروا فى الأرض دون إساءة لأهل الذمة ، وللأمة ، فدَعْهم » . .

وفى كتب كثيرة لولاته ، نراه يؤكد على الوصاة بأهل الذمة ، أولئك الذين أسماهم الإسلام – أهل الذمة – توكيداً لما فى ذمّه المسلمين لهم من عهد وميثاق . . ! !

لقد كانوا إلى يوم استخلافه ، يلاقون الكثير من العنت . ويقبعون تحت وطأة ضرائب ظالمة . . فما كاد يتولى أمر الأمة حتى أصدر أوامره الحازمة بألا يؤخذ منهم سوى الضريبة التى شرعها الإسلام لقاء حمايتهم وتوفير الأمن لهم .

وإن موقفه من قضية «كنيسة يوحنا» بدمشق لمثل رائع وباهر على عمله العظيم والنبيل لدعم وحدة الأمة كأمّة . بصرف النظر عن اختلاف الدين والجنس واللون فيها . . ! !

كان « الوليد بن عبد الملك » قد هدم جزءاً كبيراً من كنيسة « يوحنا » ، ليقيم عليه امتداد المسجد الأموى المشيد . .

وحين ولى – عمر بن عبدالعزيز – الخلافة . شكا إليه نصارى دمشق ما حدث لكنيستهم . .

تُرى ، ماذا يصنع أمير المؤمنين ؟

إن الجزء الذى تهدَّم من الكنيسة قد صار مسجداً . .

وإن أقصى ما يستطيعه حاكم عادل فى مثل هذا الموقف أن يعطى تعويضاً سخيًّا ، أو أرضاً بديلة . .

لكن « ابن عبدالعزيز » يتعامل مع العدل والحق بأسلوب مختلف عن أساليبنا . إنه أسلوب قديس جليل ! !

وهكذا أصدر أمره العجيب بهدم ذلك الجزء الكبير من المسجد ، وإعادة الأرض التى أقيم عليها إلى الكنيسة . . ! !

ودارت الأرض بعلماء دمشق وفقهائها ، فأرسلوا وفدهم لإقناع أمير المؤمنين بالعدول عن قراره .

ولكن أمير المؤمنين ، أصدر أمراً جديداً حدَّد فيه اليوم بل الساعة التى يجب أن تتم فيها عملية الهدم والتسليم . . ! !

ولم يجد العلماء سبيلاً لإنقاذ المسجد سوى أن يُفاوضوا زعماء الكنيسة فى دمشق ، ويعقدوا معهم اتفاقاً يرضَوْنه . ويتنازلوا بموجبه عن الجزء المأخوذ من كنيستهم . ثم يذهب وفد من الفريقين لإبلاغ الخليفة نبأ الاتفاق .

فيحمد الله عليه ، ثم يقره ويرضاه . . ! !

* * *

بم إذن نُفسِّر ذلك الموقف الذى اتخذه من بعض أهل الكتاب من النصارى . حين أمر أن يعاملوا معاملة خاصة فيها تضييق عليهم ، وإحراج لهم . ؟ ؟

إننا فى ضوء موقفه العام الذى رأيناه ، لا نرى لموقفه الطارىء هذا تفسيراً إلا أن يكون قد دعاه إليه سلوك بعض أولئك الذين عملوا كطابور خامس للامبراطورية الرومانية التى كانت تشنّ باسم الصليب – حروباً عدوانية على دولة الإسلام . .

يُزَكّى ذلك – فى رأينا – تلك الرسالة التى حملت أوامره بشأن أولئك النصارى . فقد ركّزت اهتمامها على مصادرة ما يوجد فى دورهم من سلاح . . مما يومىء إلى وجود مؤامرة كانوا يهمّون بها ، على أنه فى موقفه من هؤلاء . لم يأمر باتخاذ أى إجراء عنيف .

كل الذى أمر به أن يُميَّزوا بلباسهم الخاص . . وحتى هذا الإجراء يشير إلى الريبة التى داخلت نفسه تجاههم ، فأراد أن يميزهم حتى يكون هذا التمييز سبيلاً لكشفهم . .

فإذا جاوزنا هذه الفئة التى فقدت ولاءها للدولة وللمجتمع ، وجدنا موقفه من المسيحيين عامّة موقف الحارس الأمين لحقوقهم ولعهودهم ولكراماتهم .

لقد أثار موقفه من الأديان ومن حقوق الأقليات فى دولته الراشدة انبهار وإعجاب العالم الخارجى من حوله ؛ حتى إن إمبراطور الروم

« ليو الثالث » وقد كان خصماً عنيداً لدولة الإسلام ، لايكاد يبلغه فيما بعد نبأ وفاة أمير المؤمنين حتى يبكى بكاء مُرًّا ، أذهل حاشيته وأساقفته ، فسألوه فى ذلك ، فأجابهم بكلمات تعتبر من أصدق وأجمع ماقيل فى تأبين أمير المؤمنين :

« مات والله ملك عادل ، ليس لعدله مثيل . . ! !

« وليس ينبغى أن يعجَب الناس لراهب ترك الدنيا ليعبد الله فى صومعته . .

« إنما العجب لهذا الذى صارت الدنيا تحت قدميه فزهد فيها . . !

« ولقد كان حَرِيًّا أن يُعجَّل به ؛ فأهل الخير لا يلبثون مع أهل الشر إلا قليلاً » . . ! !

أفكان هذا الامبراطور ليشهد فيه هذه الشهادة لوعرف عنه أدنى اضطهاد أو انتقاص لحقوق أهل الكتاب فى عهده . . ؟ ؟

بل هل كان كبير أساقفة الرومان سيخِفُّ مسرعاً حين علم بمرض الخليفة ، ليقيم إلى جواره يُطببه ويعالجه . . ؟ ؟

* * *

ونعود للعمل الذى عمله أمير المؤمنين من أجل وحدة الأمة ؛ لنرى كيف كان فى الوقت نفسه عملاً فى سبيل سلامها الداخلى :

فالسلام الداخلى ، إنما يتوفر بالقدر الذى يتجمع فيه شمل الأمة وتتآخَى أرواح بنيها . .

ولقد أنعم الله عليه وعلى أمته بما تمنى من وحدة وسلام . .

فماذا عن السلام الخارجى ووضْع أوزار الحروب التى كانت مشبوبة

الأوار خارج الحدود . . ؟

لقد رأيناه يبدأ فى الساعات الأولى من خلافته بإصدار أمره للجيش الذى أنهكه حصار القسطنطينية بالعودة .

ثم رأيناه يفتدى جميع الأسرى على كثرتهم ويردهم إلى ديارهم ووطنهم . .

ثم نراه يضع حداً لكل الأعمال العسكرية التى كانت تقوم بها الدولة . . ويعلن أن الإسلام قد صار عزيزا منيعاً بما تم له من فتوح ، وأن على جيش الدولة ألا يتحرك بعد اليوم لقتال إلا دفاعاً عن حدود الدولة إذا هوجمت ، وعن سلامة الأمة إذا تعرضت للأخطار . .

واستعاض عن زحف الجيوش ، بكتبه التى أرسلها إلى ملوك الهند وحكام مقاطعاتها ، يدعوهم إلى الإسلام ، فأسلم أكثرهم متأثرين بما كان قد ترامى إليهم من أنباء ورعه وزهده ، وعظمته وتُقاه . .

كذلك كتب إلى البربر ، فى أفريقية . . يدعوهم إلى الإسلام فدخلوافيه أفواجاً . .

وكتب إلى ملوك ماوراء النهر ، فأسلم أكثرهم ورفعوا راية الإسلام . .

أليس رجلاً مباركاً ذلك القديس . ؟؟

* * *

وخامساً : أسلوبه فى التنفيذ . .

ماذا كانت الأمة ستُفيد من ورعه وزهده وتقاه وعدله ، لو لم تكن كفاءته فى التنفيذ موازية لكفاءته فى حمل المسئولية والإخلاص لها . . ؟؟

هنا نلتقى بجانب من أبهى وأغنى وأقوى جوانب شخصية ذلك القديس

الفطِن الحازم الأريب . . نلتقى به صاحياً يقظان . . !

إن كل ساعات اليوم الأربع والعشرين منذورة لمسئولياته . .

ليس منها سوى الوقت الذى تستغرقه صلاته وعبادته ، والساعتين أو الثلاث التى يمنحها لنومه وراحته . .

أما بعد ذلك ، فلا وقت لديه إلا لمسئوليته المقدسة .

وله أسلوب فريد فى إنجاز هذه المسئولية وتنفيذ منهجها . .

فاللين ، والحزم . . والأناة ، والحسْم . . والإشراف العميم ، واللامركزية . . والمطاولة ؛ واليقظة . . كل هذه تعمل « مجتمعة » لا « مختلطة » — فى اتساق فذّ وتكامُلٍ عجيب . . ! !

يبلغ به التعب يوماً أشده ، فيسأله بعض خاصته أن يريح نفسه ، فيقول :

« ومن يجزى عنى عمل اليوم » . . ؟

فيقولون له : تنجزه فى الغد . .

فيجيب : « لقد فَدحَنى عمل يوم واحد حتى سألتمونى أن أريح نفسى ، فكيف إذا اجتمع علىّ عمل يومين » . . ؟ ؟

إنه لا يُجرى حسابه الختامى كل شهر ولا كل أسبوع . . بل لكل يوم مسئوليته وحسابه الختامى ، ولا يحيل يوماً على آخر . لأن لكل يوم مُزدَحمه وأحماله . . ! !

وهو بالنسبة لعشرات الملايين التى تنتظمها دولته الواسعة . نداء النَّجْدَة . . لاتهتف به حاجة فرد ولا مظلمة مظلوم فى أدنى الأرض وأقصاها إلا ألْفَتْه ، وكأنه فى انتظارها وحدها . . ! !

وصِغار الأمور عنده مثل كبارها . . لها الاهتمام نفسه والمسارعة نفسها . .

حمل إليه بريده يوماً رسالة من الجيزة بمصر . .

أما صاحبة الرسالة فاسمها « فرتونة السوداء » تشكو لأمير المؤمنين . أن لها حائطاً متهدماً لدارها يتسوَّره اللصوص ويسرقون دَجاجها ، وليس معها مال تنفقه فى هذا السبيل .

ولا يكاد الخليفة يتلو الرسالة وهو فى عاصمة خلافته بالشام حتى يكتب إلى واليه على مصر « أيوب بن شرحبيل » هذا الخطاب . .

« من عبدالله عمر أمير المؤمنين ، إلى أيوب بن شرحبيل

« سلام الله عليكم . .

« أما بعد ، فإن فرتونة السوداء كتبت إلىّ تشكو قصر حائطها ، وأن دجاجها يسرق منها ، وتسأل تحصينه لها .

« فإذا جاءك كتابى هذا ، فاركب بنفسك وحصنه لها » . . ! !

والبريد نفسه الذى حمل هذا الكتاب لوالى مصر . حمل كتاباً آخر من الخليفة لفرتونة السوداء . .

« من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء .

« سلام الله عليك . .

« أما بعد ، فقد بلغنى كتابك ، وما ذكرتِ فيه من قصر حائطك حيث يُقتحَم عليك ويُسرق دجاجك . .

« وقد كتبت إلى « أيوب بن شرحبيل » آمره أن يبنى لك الحائط حتى يحصِّنه مما تخافين إن شاء الله » . . ! !

يقول ابن عبد الحكم الذى روى لنا هذه الواقعة الباهرة :

« فلما جاء الكتاب إلى أيوب بن شرحبيل ، ركب بنفسه حتى أتى الجيزة ، وظل يسأل عن « فرتونة » حتى وجدها ، فإذا هى سوداء مسكينة ، فأعلَى لها حائطها » . . ! !

هذا خليفة قديس لن تُفلت من رحمته وحسناته وعدله وأُبوَّته شاردة ولاواردة . . ! !

ولسوف يتسع قلبه الكبير وعزمه القدير لكل شيء . .

انظروا . . ! !

إنه يَكتب لواليه على مصر أيضاً .

« أما بعد . . .

فقد بلغنى أن الحَمالين فى مصر يحملون على ظهور الإبل فوق ماتُطيق . .

« فإذا جاءك كتابى هذا ، فامنع أن يُحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل . . ! ! »

بل إنه ليبصر فى جولاته أناساً يحملون مقارع ، فى أسفلها حديدة مدببة ينخسون بها دوابهم ، فلا يكاد يستقر فى مجلسه حتى يوقع قراراً يحرم استخدام هذه المقارع . . ؟ !

وتأتيه يوماً سَلَتانْ كبيرتان مملوءتان من رُطب الأردن فيسأل : ماهذا ؟

فيقال : رطب بعث به أمير الأردن إلى أمير المؤمنين .

ويعود يسأل : وعلاَم جيء به . . ؟

فيقال له : على دواب البريد . .

فيهز رأسه ، ويقول :

« لقد حملتموها : فوق طاقتها . . بيعوا الرطب ، واشتروا بثمنه علفاً لدواب البريد التى حملته . . ! !

* * *

ويبهرنا لِينُه ، وأناتُه ، وسعة صدره التى لم تعرف حدوداً . .

وفى تتبعنا لهذه الفضيلة لديه ، نجدها تنبع من رحمته العميقة الأصيلة – هذه الرحمة الذكية التى لم تكن تعنى مجرد الشفقة بالناس بل تعنى القيام بحقهم فى بذل العون لهم حتى يتغلبوا على نوازع الشر فيهم ، وعلى هواجس النفس ، ونقاط الضعف . .

وإنا لَنتسمَّع هذا النبض الحنون النبيل من خلال دعائه الذى كان يَضرع به إلى الله كثيراً :

« اللهم زِد مُحسِنَ أمة محمد إحساناً ، وأَرْجعْ مُسِيئهم إلى التوبة . . اللهم ، وحُطَّ من أوزارهم برحمتك » ! !

إنه لا يتحسس الأخطاء ، ليعاقب عليها . بل ليعالجها فى رحمة وحنان .

وإن أخطاء الناس لَتشغله إلى المدى الذى رأيناه حيث لاينظر إليها كحاكم ؛ بل كعابد . يصلى من أجل مغفرتها وإنهاض ذويها . . ! !

وهو لا يستبقى أناته وحلمه وسعة صدره وتسامحه ، داخل إطار ذاته – كخلق شخصى له فحسب . . بل يحولها إلى فلسفة للحكم ومنهاج .

ولطالما كان يوصى كل وال من ولاته بهذه الوصية :

« إذا قدرت على دواء تشفى به صاحبك
دون الكيِّ فلا تكوِيَنَّه أبداً . . ! ! »

ولقد كان من حق حكام الأقاليم قبل عهده أن يُنفذوا حكم القتل فيمن يشاءون عدلاً ، أو ظلماً . .

فلما وَلِى ، حرمَهم هذا الحق ، وأصدر أمره ألا ينفذ حكم القتل فى أحد ، حتى يطلع بنفسه على قضيته ، ويرى فيها رأيه . .

وراح يتجنب كل عنف وقسوة قائلاً :

« والله لا أصلح الناس بهلاك دينى » ! !

* * *

على أن رِفقه وأناته اللذين وسعا أمته جميعاً ، لم يكونا مطمعاً يُغرى باستضعافه أو مخادعته ، فقد كان هناك الحزم اليقظ لكل من تُسوِّل له نفسه عبثاً ، أو فتنة . . ! !

ولقد كانت فضائله كلها مهيأة على الدوام لحماية مواقعها وأداء دورها . .

فلا يجىء موقف يتطلب الرحمة ؛ فيجدها غافية . . ولا موقف يتطلب الحزم ؛ فيجده كَلِيلا . . ! !

ولقد نراه مع عامّة الناس ينتفض كالعصفور تواضعاً وحناناً ورحمة . .

ثم نراه مع الجبارين أسداً يزأر . . وجَلَالاً يُهاب . . ! !

بعد أن يئس الأمراء الأمويون من استرداد إقطاعاتهم وثرواتهم بالضراعة والحيلة ، أغرَوْا واحداً منهم وهو – عمر بن الوليد بن عبد الملك – بالكتابة إليه مهدداً متوعداً . . فكتب يقول :

« أما بعد ، فقد أزريتَ بمن كان قبلك من الخلفاء ، وسرتَ بغير سيرتهم ، فقطعت ما أمر الله به أن يُوصل وعملتَ بغير

الحق فى قرابتك . وعمدت إلى أموال قريش ومواريثهم وحقوقهم فأدخلتها بيت مالك ظلماً وجَوْراً وعدواناً .

« فاتق الله يابن عبد العزيز ، فإنك تُوشِك ألا تطمئن على مِنبرك ». . . ! !

وفى اللحظة التى يفرغ الخليفة فيها من قراءة هذا الخطاب المتسم بالسفه والطيش ، يتقدم خُلُق الحزم الصارم ليؤدى دوره تجاه الباطل الذى يتوعد الحق باسترداد سلطانه وبُهتانه . . ! !

ويكتب أمير المؤمنين ردَّه :

« من عمر أمير المؤمنين ، إلى ابن الوليد . .

« سلام على من اتبع الهدى . .

أما بعد ، فعهدى بك أنك كنت جباراً شقيًّا ، والآن تكتب إلىّ تتهمنى بالظلم ، لأننى حرمتك وأهل بيتك من مال المسلمين ماهو حق للضعيف والمسكين وابن السبيل . . ! !

« ألا إن شئت أخبرتك بمن هو أظلم منى وأترك لعهد الله . . ! ! إنه أبوك الوليد ، الذى حين كان خليفة للمسلمين استعملك عليهم صبيًّا سفيهاً تحكم فى دمائهم وأموالهم . . ! !

« فويل لك ، وويل لأبيك — ما أكثر طُلَا بكما وخُصَماءكما يوم القيامة . .

« وأظلم منى وأتركُ لعهد الله . من استعمل الحجاج بن يوسف . يسفك الدم الحرام .

« وأظلم منى وأترك لعهد الله ، من استعمل يزيد بن أبى مسلم على جميع المغرب . يَجْبى المال الحرام . . ويسفك الدم الحرام . .

« ألا رُوَيْدَكَ يابن الوليـد . فلو طالت بى حياة لأتفرغَنّ لك ولأهل بيتك حتى أقيمكم على المحجَّة البيضاء . . ! ! ! »

لنضع خطابه السابق إلى « فرتونة السوداء » تجاه خطابه هذا إلى ذلك الأمير الأموى المتجبر ؛ لنرى فى غير تعليق كيف كانت تعمل فضائل هذا الإنسان الباهر الجليل . . ! !

إن الرجل الذى يجلس للناس على الأرض وهو خليفة . .

الإنسان ، الوديع ، العذْب ، يتحول إلى إعصار مُدْمِدِم أمام جبروت الباطل أنّى يكون . . ! !

ومثل هذا الموقف من الأمراء المتمردين . موقفه من امبراطور الروم . .

لقد أُخبر أن أحد جنود الجيش الذى كان يحاصر القسطنطينية وكان مقاتلاً شديد البأس ، قد وقع أسيراً فى أيدى الرومان . وحُمل إلى الامبراطور الذى حاول إكراهه على الخروج من دينه الإسلام ورفض الأسير . . فأمر الإمبراطور أن تُسْمَل عيناه . .

بلغ النبأ – أمير المؤمنين – فهبَّ حزمه الشديد ليعالج الموقف .

وحمل قلمه وكتب إلى ملك الروم :

« أما بعد . .

« فقد بلغنى ماصنعت بأسيرك فلان . .

« وإنى أقسم بالله . لئن لم تُرسله إلىّ من فورك لأبعثن إليك من الجند مايَكون أولهم عندك وآخرهم عندى » . ! !

ويعود الأسير إلى وطنه وأهله . . ! !

* * *

وهو ذو يقظة شاملة ، لاتتجلىّ فى الإيجاز وحده – بل فى رؤية القضايا ، وإدراك الكليات والتفاصيل . .

ولو تتبعنا كتبه إلى ولاته لوجدنا من آيات يقظته وشمول نظرته وفطنته مايبهر الألباب .

فلنقنع ببعض فقرات من تلك الكتب :

* « اتبعوا ماأحل الله وحرِّموا ماحرم واعترِفوا بحقه تعالى ، واحكمو بما أنزل . .
* « افتحوا للمسلمين باب الهجرة . .
* « دعوا الناس يتجروا بأموالهم فى البر والبحر ، لاتحولوا بين عباد الله ومعايشهم . .
* « أبيحوا أرض الحِمَى للمسلمين عامة ، وليكن حق الأمير فيها كحق واحد منهم . .
* « الخمر باب الخطايا ، فحرموا كل مسكر . .
* « كافحوا التطفيف فى المكيال والبَخْس فى الميزان . .
* « لاتتَّجروا وأنتم وُلاة ، فإن الأمير إذا اشتغل بالتجارة استأثَر ، وأصاب ظلماً ، وإن حرص ألاّ يفعل . .
* « لاتأخذوا من أموال الناس إلا الحق الذى شرعه الله ، وما عدا ذلك فضعوه كله – لاأفرق بين مسلم وأهل كتاب . .
* « ضعوا السُّخرة عن الناس ، وليكن لكل عمل أجرهُ . .
* « ردوا المزارع لما خُلِقت له ، فإنما جُعلت لأرزاق المسلمين كافّة . .

* « لاتتخذوا على أبوابكم حُجّاباً يمنعون ذوى الحاجات والمظلومين . .
* « اقمعوا صوت العصبية والقبلية ولا تدَعوا الناس يقول أحدهم ، أنا مُضَرِىّ ، ويقول الآخر : أنا يمنى فالمؤمنون إخوة . .
* « الخيل عُدة الجهاد ، فلا تدعوها تركض فى غير حق . .
* « امنعوا النساء أن ينشرن شعورهن ويخرجن نائحات وراء الموتى . .
* « قاتلوا هواكم ، كما تقاتلون أعداءكم . .
* « سدِّدوا المخالفين ، وبصِّروهم ، وارفُقوا بهم ، وعلموهم ، فإن اهتدوا كانت نعمة من الله وفضلا . . وإن أبوا فتَحرَّوا الحق فيما تُنزلون بهم من عقاب . .
* « أكثروا من دعاء الله بالعافية لأنفسكم ولمن ولّاكم الله أمره ؛ فإن لكم فى إصلاحهم أكثر مما لهم . ، وعليكم من فسادهم أكثر مما عليهم . .
* « تعاهدوا حُجّابكم ورؤساء حرسكم وشُرَطِكم والعاملين معكم ، وأكثروا المسألة عنهم حتى تستيقنوا أنهم لايرتكبون غَشْماً ولا ظلماً . .
* « لا يأخذنكم الزهو بنظر الناس إليكم ؛ ولابحديثهم عنكم . وضعوا أعينكم على الذى هو أبرُّ وأتقى وأخلصوا لله رب العالمين . .
* « اتركوا أعمالكم عند حضور الصلاة ؛ فإن من أضاع الصلاة كان لما سواها أضيع . .

« تحرَّوُا الحق ؛ ثم اعملوا به بالغاً مَا بلَغ بى وبكم . . حتى وإن ذهب بحياتنا وبمهج أنفسنا . . » ! ! . .

هذا نموذج من أوامره وتوجيهاته يكشف عن يقظة شاملة لتفكيره ومشاعره وإرادته .

يقظة تعطى الجزئيات الاهتمام نفسه الذى تعطيه الكليات ! !

وبهذا المنهج الذى يستمد من قداسته ، وفطنته ، وعزمه ، قَطع ابن عبد العزيز طريقه وَثْباً ؛ متخذاً من الإنجاز وسرعة الحركة طابعاً لمسيرته المباركة . .

لقد كانت مسئوليته عن كل شىء واضحة وضوح الشمس ومشكلات الدولة والأمة لاتنتظر من يكشف عنها أو يفلسفها ، بل تنتظر من يواجهها بذمة وصدق وحسم ، ففيم إذن يكون تَلفُّت أو انتظار . . ؟ !

ومن هنا انطلق يُنجز ؛ وينجز ، وينجز . . مُعطياً كل مسئول مسئوليته ، آمراً إياه أن يمضى بها فى شجاعة وحكمة وأمانة .

أجل ، لقد كان يَنهى ولاته عن أن يكونوا إمَّعات أو متواكلين ؛ هيَّابين . .

وإنه لَيرضَى أعظم الرضا عن ولاته حين يراهم مُقبلين على مسئولياتهم فى شجاعة ، مُنجزين إياها فى حزم ؛ مُيمِّمين وجوههم وأفئدتهم صوب الحق وحده ؛ لايعدلون به أحداً حتى الخليفة نفسه . .

« إذا أرسلتُ إليكم أمراً يخالف الحق ، .

« فاضربوا به الأرض . .

« واستمسكوا بالحق وحده » ! ! !

وكان يعينهم على قهر التخوف من المسئولية بمنحهم قدراً كبيراً من اللامركزية ، والاستقلال . .

أرسل يوماً إلى أحد ولاته أمراً ، فأرسل الوالى يستوضحه ببعض التفصيلات فتجهّم الخليفة وكتب إليه من فوره :

« أما بعد . .

فأراك لو أرسلت إليك : أن اذبح شاة ووزع لحمها على الفقراء ، لأرسلتَ تسألنى : ضأناً أم ماعزاً .؟

« فإن أجبتُك . . أرسلت إلى تسألنى :

كبيرة ، أم صغيرة . ؟

« فإن أجبتك ، أرسلت تسأل : بيضاء . أم سوداء . ؟ ! !

« إذا أرسلتُ إليك بأمر . فتبيَّن وجه الحق فيه . ثم أَمْضِه » . . ! !

إنه لا يريد أن تتلكأ حقوق الناس وتتعثر فى شكليات عقيمة .

إنه يجد نفسه مسئولاً عن كل خطأ ، أو مظلمة تبقى دقيقة من الزمان . . ومن ثم فهو يقطع الأيام وثباً وراء كل خطأ حتى يصلحه ، ووراء كل حق حتى يؤديه لصاحبه . . ! !

وبمثل هذا الحسم والإنجاز . كان يغير كل وال ، أو قاض ، أو أمين أو رئيس شُرطة . أو مسئول . لاتثبت التجربة السريعة الصادقة أنه فى مكانه . . وإذا خُدع فى أحد فظنه للمنصب أهلاً . ثم تبين له أنه غير أهل . لم يُنظِره لحظة تحت تأثير حرج أو مجاملة .

ولقد ملأت يقظته وإنجازه بلاد الدولة إعماراً وحياة ، وفجَّرت طاقات الناس تفجيراً .

وعلى الرغم من أنه كان يرى القدوةَ التى يقدمها للناس جميعاً . تفعل فيهم فعل السحر ، وتجرى من ضمائرهم وسلوكهم مجرى الدم فى العروق ، فإنه مع ذلك لم يغفل عن مراقبة تنفيذ منهجه بنفسه . . فتراه يتنقل

فى مواطن كثيرة متخفياً ومتنكراً يسأل ، ويفحص .

ولم تكن فى الحياة بأسرها متعة تشيع فى روحه البهجة والغبطة مثلما يرى أو يسمع أن ظلماً قد دُحض . . وأن عدلا قد نهض . . وأن حقًّا قد رُدَّ لصاحبه فى غير جهد منه ، أو إلحاف . ! !

ركب يوماً فى إحدى جولاته هذه ، مصطحباً معه مولاه « مُزاحِم » حيث خرجا إلى مفارق طرق بعيدة تعبرها قوافل المسافرين . .

وهناك راح وهو متنكر فى ثيابه يسأل الغادِين منهم والرائحين .

ومن بين هؤلاء رجل فى إحدى القوافل ، اقترب منه – عمر – وسأله : كيف تركتَ الناس فى بلدك . . ؟

فقال الرجل : إن شئت جمعتُ لك خبرى ، وإن شئت بَعَّضتُه تبعيضاً . ! !

فابتسم الخليفة ، وقال : بل اجمعه . . أى ، أوْجِزه . .

قال الرجل :

« تركت البلاد ، الظالم بها مقهور . . والمظلوم منصور . . والغنىُّ موفور . . والفقير مجبور » . .

وسارع – عمر – بالانصراف بعيداً عن محدثه قبل أن تشى به انفعالاته ودموع الشكر التى راحت تتحدر من مآقيه . .

وولَّى مسرعاً . مسرعاً . وقلبه الشكور ، ولسانه الذَّكُور يضرعان إلى الله بآيات الحمد والثناء .

والتفت إلى « مزاحم » وقال له :

« والله ، لَأنْ تكون البلاد كلها على ماوصف هذا الرجل ، لأحبَّ إلىّ مما طلعت عليه الشمس » . . . ! !